الأهرام

المصدر : رابطة العالم الاسلامي
التاريخ : ١ شعبان ١٣٨٨هـ

المسلمون يفتحون المحيط قبل كولمبس

بقلم : الدكتور محمد رجب البيومي

- ٢ -

هذه النصوص الصريحة تثبت أن القول بكروية الارض مما اشتهر وذاع بين المسلين شرقا وغربا منذ عصر المأمون ومن وليه من العلماء قبل ظهور كولمبس بأجيال كثيرة واذا كانت رحلة الفتية الاندلسيين فى القرن الثالث الهجرى فانها تجد دعامتها المنطقية لديهم من هذه الحقيقة الجغرافية المتداولة من عهد الخليفة العباسى فليست اذن مما يقابل بالانكار كما أن رحلة كولمبس فيما بعد ليست الا صدى لما تردد عن الرحلة الاولى بين الناس وتناقلته الافواه

نقول ذلك لأننا نعرف أن خريستوفر كولمبس قد نشأ في جنوا ذلك الثغر الإيطالى التجارى الذى يغرى بالرحلة ويدفع بالطموح إلى نفس فتى ذكى يتطلع إلى المستقبل في عزم ، ويرى عمه كولمبس الكبير رحالة يجول في الآفاق ، ويرجع مسروراً يقصّ الأنباء عما شاهد من الأرض والناس فيحظى بالإكبار المعجب ، وإذ ذاك يصر على مصاحبته في رحلاته مستهينا بما يسمعه من أنباء القرصنة وغرائب الوقائع بين وحوش البحر عاصمة البرتغال لعهده ، فيعيش في دروبها ، ويخالط أهليها ينقل عنهم ويسمع !! نقول : إذا كان كولمبس حقا قد سلخ قدرا من حياته في لشبونه ، وهو المتطلع الذكى اللامح ، أفليس من الممكن أن تأتيه الأنباء عن فتية المحيط وقد عرف باسمهم شارع مشتهر وامتدت مغامرتهم عبر الزمن حتى اختلطت ببعض الأساطير ؟ ذلك ليس ببعيد !

وإذا كان الزمن قد ترامى بين الفتية الثمانية الأوائل وبين كولمبس بقرون عدة ، فإنّ التاريخ العربى يحتفظ بين سطوره بمغامرة عربية في المحيط وقعت قبل رحلة كولمبس بأكثر من قرن ونصف حكاها القلقشندى في صبح الأعشى ، وابن فضل الله العمرى في مسالك الأبصار ، وقد حدد

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

صاحب الصبح من تاريخها ما يمكن
بمقدار الزمن بين الرحلتين ، إ
مالى موسى بن أبى بكر مرّ بمـ
الحج في عصر الناصر محمد بن قلا
فأوفد السلطان الناصر أحد كبار
لاستقباله ، ثم استفسر وا منه عر
حفاوة بالغة وترحا ب عظيم ،
انتقال الملك اليه ، فأجاب بأن
السابق محمد بن قوكان يظن أن
غاية تدرك ؛ فجهز مئات السفن
والمؤن التي تكفيهم سنين ؛ وأمـ
أن يبلغوا نهاية الماء أو تنفذ أزو
طويلة ، ثم عادت سفينة واحد
ليخبر بان السفن سارت زمنا طوي
البحر ذات يوم هيجة عظيمة فا
وكان المتحدث في المؤخرة فكر
السلطان مستريبا ثم أراد أن يباش
فأعد الفى سفينة للرجال وألفا للا
على رأس الحملة الاستكشافية ،
العهد به » !

هذا مجاهد عربى مسلم آخ
المغامرة تملؤه من فرع إلى قدم
في الرحلة الأولى بمئات السفن
فقد قرر أن يواجه الخطر بنفسه
بثلاثة آلاف سفينة تحمل العدد
ولم يعد ، ولو كان هذا المغامر الب
التاريخ ، وترصد الظواهر لـ
وشغل الناس ! ولكنه ظل رد
حتى أتيح له أن يسجل في المو
بضعة أسطر معدودة لا في
بالغرائب والأعاجيب ! . ولقد
الكبير الاستاذ عبد الحميد العبا

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الرحلة اللشبونية وفق ما اهتدى إليه ظنه الجغرافى فقال رحمه الله

ومهما يكن رأى أهل لشبونة في هؤلاء الفتية ورحلتهم ، فإن ما قاموا به طريف حقا ؛ ورحلتهم هى الأولى من نوعها بعد رحلات الفينيقيين القدماء ، ومعالم قصتهم صحيحة صادقة من الوجهة العلمية ، فالظاهر أنهم عندما ساروا أول الأمر أحد عشر يوما متجهين شمالا ؛ إنما أصبحوا في محاذاة إرلندا ، فلما ساروا بعد ذلك من الجنوب اثنى عشر يوما بلغوا الجزيرة التي سموها جزيرة الغنم ، إنما بلغوا الجزيرة المسماة الآن بمادير؛ ويذكر العلامة دافزاك نقلا عن العالم الطبيعى برتلو أن بهذه الجزيرة كثيرا من المعز تقتات بنوع من عشب هذه الجزيرة هو السبب في مرارة لحومها»!

هذا وقد شاع — كما في رواية الأدريسي — اطلاق اسم الفتية المغرّرين على هؤلاء الرواد ، وتسمية دربهم المشتهر في لشبونة باسم « الفتية المغرّرين » وفي هذا الوصف بالتغرير ما يدعو إلى الوقوف قليلا ، إذ أننا نراه إطلاقا عفويا صدر حين فوجئوا بعزمهم على ركوب المحيط ؛ فرأوا في هذه المجازفة الخطيرة من التغرير ما أوحى لهم بهذا الوصف ؛ وهؤلاء المعارضون على كثرتهم آنذاك لم يعبروا به عن غير الشعور الطبيعى الذى ينتاب من يسمع عن مغامرة خطيرة تقوم دونها الصعاب ، ولا يتوقع لها النجاح ؛ وهم معذورون فيما يصفون وقد آثر الاستاذ سعيد العريان كلمة المغرورين بدلا من المغررين ، ارتكازا لبعض المخطوطات التي تعددت من نزهة المشتاق ؛ والفارق الكتابى بين اللفظين حرف واحد هو الواو ، ولكن الفارق المعنوى جد كبير ! إذ يصف هؤلاء

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

القوم بما يجب أن ننأى بهم عنه ، وإذا كانوا مغرورين حقًا في منطق معاصريهم فهم اليوم غير مغرورين في منطق الواقع الجغرافى المشاهد ، والأمر في ذلك أهون من أن يتسع له الخلاف ! وقد جاءت أنباء القرن الحادى عشر تتحدث عن رحلة قام بها راهب ارلندى في القرن السادس يعرف بالقديس براندان ، وقد زعمت أن القديس توهم الجنة في إحدى جزر المحيط الأطلسي ، فصمم على الذهاب اليها في جماعة من الرهبان يبلغون ثمانية عشر راهبا ! وقد حلّوا — كما تزعم الرواية بجزيرة الغنم التي تحدث عنها فتية الأندلس ، ثم رأوا قطعة أرض كبيرة جرداء فنزلوا إليها وأوقدوا بها نارا لإنضاج طعامهم ، فاهتزت بهم الأرض ، وخافوا على أنفسهم فقروا ، فإذا الأرض تطير ، وقد كانت حوتا هائلا يختطف الوحوش : فذعر القوم وكروا راجعين إلى ارلندا يقصون ما يعلمون ! !

وبالتأمل في أحداث هذه الرحلة نراها صعبة التصديق : إذ أن الراهب المسيحى يعلم بداهة أن الجنة لا تكون في الأرض الفانية ، ولن يرحل إليها إلا بعد الموت ، فمحاولة الذهاب إليها في وسط المحيط هذيان مضحك لا يتطرق إلى ذهن طفل ، فضلا عن ثمانية عشر راهبا من رجال الدين ، كما أننا نعلم أن الكنيسة المسيحية للقرن السادس كانت كتبها المتداولة ترى البحر الأعظم مسرحا للغيلان والوحوش والشياطين ، وتنذر لراكبيه بالصواعق والحتوف ، حتى ظُن أنه مهوى الآثمين من بني الإنسان في القديم ممن خسفت بهم الأرض وتحولت إلى مياه مشتعلة أخذت تبرد بفعل الزمان فأين تكون الجنة إذن مع هذه الأفكار التي يلوكها الرهبان مصدّقين ! أما جزيرة الغنم فصدى رنان لما تداولته الأنباء عن رحلة الأندلسيين

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وخاتمة الرحلة مما يوحى بأسطوريتها ؛ لأن الأرض الجرداء التي تتحول إلى حوت هائل ، خيال شرقى نجده في قصة الرخ الطائر بألف ليلة وليلة حين هبط بجناحيه السوداوين الكبيرين على البحر فظنه الملاح جزيرة وسط الماء وحول السفينة إليه ، فنزل الركاب وأخذوا مقاعدهم من جناحيه ثم طار بهم الرخ إلى الفضاء ! أليس هذا الخيال الأسطورى في ألف ليلة وليلة هو ما نسب إلى الراهب براندان في القرن الحادى عشر ! بعد أن ملأت قصص ألف ليلة وليلة ربوع الغرب ! ثم إن قيام الراهب بالرحلة في القرن السادس وتدوينها في القرن الحادى عشر على نسق رواية الفتية المغررين مما يوحى بالإحتذاء المصطنع او ستظل شكوكنا قائمة بإزائها حتى نظفر بالدليل .

وبعد فهذا هو حديث التاريخ العلمى عن رحلة الفتية الأندولسيين ، فما حديث الفن الأدبى عن هذا الكشف العلمى العجيب ؟

لقد اعتاد الأدباء في الشرق والغرب أن يأخذوا من صفحات التاريخ بعض المواقف الرائعة لتكون مجال إلهامهم الأول ، فينفخوا من إبداعهم في الهيكل المجرد ما يجرى به الدم الفائر ، ويكتسي اللحم الشاخص ويتنفس بالحياة على المسرح كائنا حيا ينبض بالآمال ويجيش بالآلام وقد كانت رحلة خرستوفر كولمبس إحدى هذه المواقف التي اتسعت أدوارها لجولات الفن الأدبى فتحدث عنه الروائيون في شتى مواقفه ، وصوّروا ميلاد الفكرة الإكتشافية في رأسه ، ثم سعيه الجاهد على تحقيقها مترددا على بلاط الملوك في فرنسا وأسبانيا والبرتغال ثم نجاحه في إقناع الملكة أيزابيلا بتهيئة السفن والملاحين وكم تحدثوا كثيرا عن خواطره في عرض المحيط ورسموا مسارح الغداة والعشى والشفق والأصيل

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

على القبة الزرقاء منعكسة على سطح البحر ، كما صوروا تلاعب الموج وهبوب الإعصار ، وثورة الناقمين من رفقائه ممن أجبرتهم الملكة على مصاحبته دون إختيار ، ثم تآمرهم على إغتياله بين الحين والحين وشخوص الأنظار إلى الأفق ترقب طائرا يبشر بالأرض ، أو غصنا أخضر يرعى به الموج دليلا على الحياة في مأزق قال عنه الأستاذ العقاد

يسأل السحب أيـــن مسراك غربا
أين ترمين بالحيـــا المسجـور
لو نعيب ابن دايـــة سمعت إذ
نـاه لاعتـده دعـاء بشـــير
فـي سماء مـاقط حـوّم فيهـــا
غير عـادى سحابها مـــن طيور

أجل ! لقد كتب الروائيون والشعراء عن رحلة كولمبس مبدَعين ! وكان من حظ الفتية المغررين أن ينهض الأديب العربى المرحوم الاستاذ محمد سعيد العريان . إلى تصوير رحلتهم في قصة بارعة يقدمها للنشيء العربى إ! وان التفات العريان إلى هذه الحادثة الرائعة ليقابل بالإغتباط والنشوة ! ولا ينقص منه أن كتب قصته للنشيء وحدهم ! دوون أن يرتفع بها إلى الأوج الفني فتكون فنا أدبيًا كاملا ينعم به الكبار من المثقفين ؛ إذ أن توجيه الطلاب إلى أمثال هذه المواقف الرائعة مما ينفخ فيهم حمية البطولة ، ويدفع بنفوسهم إلى التطلع السامى محتقرين الصعاب هازئين بالعقبات ، وأعظم من هذا كله أن يعرف طلابنا العرب روائع بارزة عن سياحات السلف المتقدم تكون حداء ساحراً لهم في دروب المجد ، ، وقد ختم الأستاذ العريان قصته التي تقع في ١٥٨ صحيفة بتعقيب قال فيه .

« كل ما تضمنته هذه القصة من الحوادث

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الكبار ذكره المؤرخون العرب القدماء ،واعترف به كثير من المؤرخين الأوربيين ، وفي كثير من المخطوطات العربية القديمة ، المحفوظة في المكتبات الأوروبية تفصيلات وافية عن بعض المحاولات العربية التي وصفناها وقصة الشبان اللشبونيين الثمانية ، مذكورة في بعض المؤلفات العربية التي مات مؤلفوها قبل أن يولد خريستوفر كولمبس ، ولم تزل الصحف العربية والأوروبية تنشر في أوقات متقاربة أو متباعدة بحوثا جديدة لمؤرخين أوربيين ، أو جغرافيين أوربيين ، تثبت أن العرب قد عرفوا ذلك الطريق ، ووصلوا إلى تلك الأرض ، قبل أن يصل إليها خريستوفر كولمبس وقبل أن يكون فردينا ند وإيزابيلا ، ولو لم يكن العرب في ذلك التاريخ البعيد مشغولين برد العدوان الصليبى على بلادهم في مصر والشام وفي المغرب والأندلس لكان تاريخ أمريكا غير ما هو اليوم ، إن عجلة التاريخ كانت تتجه إلى أن تكون أمريكا أرضا عربية ، فلو لم تنحرف العجلة يومئذ عن اتجاهها بسبب الأحداث التي وصفناها لكانت أمريكا اليوم جزءا من الوطن العربى »

بدأ العريان رحلته بالحديث عن بحر الظلمات وعن حضارة العرب العلمية بالأندلس – في أسلوب سلس هادىء – ثم ارتضى لفنه الأدبى أن يجعل أوّل رحلة عربية للمحيط رحلة ملك السودان الغربى حيث جهز السفن من موانى افريقية الغربية عابرة المحيط برجالها الذين ذهبوا دون أن يعودوا ، فاضطر الملك إلى رحلة أخرى يقوم على رأسها مجهزة بالسفن والبضائع والزاد ، فابتلعها المحيط دون أن يبقى على غير عربى واحد سبق إلى القارة الجديدة !! وقد علمنا في صلب هذا المقال أن ما رواه القلقشندى وابن فضل الله العمرى عن رحلة ملك مالى السودانى يقف بها

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

عند القرن الثامن الهجرى ! مع أن رحلة الفتيان الأندلسيين كانت في القرن الثالث ، فيفصل بين الرحلتين خمسة قرون !! فكيف ارتضى الاديب لفنه أن يجعل المتأخر متقدّما ؟ والمتقدم متأخرا ؟ لاشك أن الفن الأدبى يتيح لصاحبه هذا التصرف إذ أن الجوهر التاريخى لم يمس في شيء إذا نظرنا إلى تصوير الأحداث بمنأى عن حدود الزمن والمكان ! ولكن أما كان الأوفق — في رأى على الأقل — أن يكون الصدق الزمني في ترتيب الاحداث مما يقوى عناصر التأثير لدى قارىء محقق ينظر إلى الرحلة في ضوء ما تنطق به أحداث التاريخ ، لقد فكرت كثيرا فيما صنع العريان من تقديم وتأخير باحثا عن سر اتجاهه في ذلك ، ثم اهتديت إلى أن الذى دفع به إلى هذا الإتجاه ، هو ما حكاه الإدريسي نفسه في قصة الفتية المغرربن إذ ذكر — فيما ذكر — أن ترجمانا عربياً جاء إلى الفتية فسألهم بلسانهم العربى فأجابوه فكأن الاستاذ العريان رحمه الله كان يفكر فيما بينه وبين نفسه ؟ كيف يكون في الجزيرة الغربية رجل ينطق باللسان العربى ومن أين جاء ؟ ثم رأى ،وفقا لتفكيره الفنيّ أن يتقدم برحلة ملك مالى في السودان العربى ليبقى منها فردا يكون هو الترجمان المنشود ! وذلك في رأيى الخاص ماحدا بالعريان إلى التصرف التاريخى ، وهو — في مجال الفن الأدبى — أمر لاغبار عليه ، ويخيّل إلىّ أن الأستاذ العريان كان بمنجاة من هذا الترجمان لو لم يلترم بكلّ ما أورده الادريسي ؛ وقد قلت في صدر هذا المقال ما نصّه « وإذا كان من طبيعة هذا النبأ الغريب أن يكون مدعاة التزيد في الرواية وبخاصة حين تمضغه الأفواه من جيل إلى جيل فإن المؤرخ الدقيق لا يستطيع أن يتجاهل عناصره الأولى التي أدت إلى خلوده : فلو لم تكن بذراته

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الأولى صحيحة ما تدوول على هذا النطاق ، والبذرات الأولى إذا جردت مما يحتمل الزيادة والتلفيق لاتخرج عن أن قوما من أهل لشبونة تشوقوا إلى معرفة ما وراء المحيط فجهز وا مركبا مشحونا بالزاد والعتاد ثم نزلوا بعد جهاد شاق إلى بعض الجزر وسيقوا إلى حاكمهافعصب عيونهم وأمر بإرجاعهم فعادوا إلى بلادهم بعد أهوال

وإذن فقصة الترجمان العربى مما أضافه التريد، وكان من المنتظر من مثل الأستاذ العربان ألا تلجئه إلى هذا التحوير الكبير ! إلا أن يكون له وجهة محترمة لم أقف عليها بعد وقد أبدع الكاتب حين تحدث في الرحلة نفسها عن رحلة كولمبس ، ، وقد جعلها صدى واقعيا لرحلة الأخوة المغررين وكان مما قال في ذلك ص ١٠٣

بلغت قصة الإخوة المغررين حظها من الذيوع والإنتشار ، وتناقلها الناس في كل مكان :وسمع بها العامة وأهل الأسواق وكل مدن الساحل ، تحكى كالأساطير أو القصص الخيالية ، وكان البحارة يحكونها لرفقائهم في أثناء رحلاتهم ، ومجالس سمرهم ، وتقصها العجائز على أحفادهن في ليالى الشتاء الطويلة الباردة

ولم تزل مذكورة على كل لسان مروية في كل مجلس من مجالس الأنس والمسامرة على توالى الأجيال واختلاف الزمان حتى سمع بهـــا خريستوف كولمبس في ليلة من ليالى السمر بمدينة جنوه فتعلق بها قلبه ، واشتغل بها فكره ، وتمنى أن تتاح له الفرصة للوصول إلى تلك المجاهل ، الواقعة في غرب المحيط ، وكان خريستوف كولمبس شابا فقيراً من أهل جنوة على الساحل الإيطالى وكان مولعا بالرحلات البحرية فزار موانى البحر المتوسط ؛ ووصل إلى شمال أفريقيا

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ووطئت قدماه جبال أطلس في المغرب العربى وهبط إلى السودان الغربى حيث بدأت أوّل محاولة عربية ـ هكذا شاء العريان ـ في اكتشاف غرب المحيط ، وكان يسمع كلما ذهب إلى بلد من تلك البلاد قصة الإخوة المغررين فأمتلات نفسه أملا في الوصول إلى تلك الأرض التي وطئتها قبله أقدام العرب منذ مائتي سنة والتي كان يظن أنها بلاد الهند »

ثم تابع الكاتب رحلة كولمبس ليلقى بهاالأضواء على رحلتي الاندلسيين والسودانيين ! هذا ، ولا نزال ننتظر بعد قصة العريان أديبا آخر يكتب رحلة هؤلاء الأبطال ، أو شاعرا يضع عنهم إحدى ملاحم البطولة ، وما ذلك بكثير ..

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية